أبو نواس

الحسن بن هانىء

شاعر خرجت الأغانى لا تحمل ترجمة مفردة له ، ولست أدرى أهو صاحبنا أبو الفرج الأصبهانى الذى تغافل عنه فأسقطه من حسابه ، أم أسقطت ترجمته بعد أن تداولتها أيدى النُّسَّاخ . عُرف بلقبه دون اسمه واشتهر به حتى صار علماً يطلق عليه فى كل أطوار حياته . أثر مرآه الخارجى فى مستقبله ، وكان عدته فى تقدمه إلى أن برز ونبغ ، واستهتر ولم يتستر ، وبات اللهو والمجون والتبذل علانية صفة له لا يبرحه ، وقد يكنى بها لو قدرت له هاته الكناية . . . . واختلف الرواة فى أول ما قاله من الشعر اختلافهم فى نسبه ، وتباينهم فى أبيه ، وتفرقوا عند الحديث عن أمه ، وترك كذلك نهباً بينهم عند تحقيق ميلاده ووفاته وسنه !

وقد ترى فى هذا عجباً وقد تدهش أكثر إذا علمت أن الرجل مات فى السادسة والأربعين من عمره فى زعم البعض ، والثالثة والستين فى زعم آخرين ، وفى التاسعة والخمسين على ما حققته الغالبية ومنهم ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، على أنى أذهب الى أن سبب هذا هو استهتار أبى نوّاس وإسرافه فى التبذل وكثرة ما غلب على شعره من الهزل ، فاضطر كثير من الرواة الى أن يغفلوا شعره ، أو أن يذكروه إلماماً على هامش سواه . فكانت أكبر ترجمة له لا تزيد عن الورقتين أو الثلاث ، وكان الرجل الوحيد الذى تحدث عنه بافاضة ودرس شعره وأسرف فى تقييده هو ابن منظور المصرى صاحب « لسان العرب »[1] .

---

(١) الكتاب الذى صححه وضبطه الأستاذ محمد عبد الرسول ابراهيم بدار الكتب .

وصاحبنا هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح ورجع به ابن خلكان فى وفيات الاعيان[1] الى الجراح بن عبد الله الحكمى والى خراسان على أنه جده فنسبه اليه ، وإن كان أكثر المؤرخين يقولون إنه من مواليه ، وأبوه هانىء قيل كان كاتباً لمسعود المادرانى على ديوان الخراج ، وقيل كان يرعى الغنم ، وقيل بل كان حائك ثياب، على أنه ـ كما حققه صاحب « وفيات الأعيان » ـ كان من جند مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية . أصله من دمشق وقدم الأهواز للرباط بها والشحنة ، وتزوج بها وولد له فيها أبو نواس ، ثم نقلته أمه الى البصرة وهو بعد فى السادسة من سنى حياته .

وتستطيع أن تدرك من ذلك أن أبا نواس عباسى نشأ مع دولة العباسيين وعلى مقربة من حاضرتهم بالبصرة ، ونبه فيها ، ثم قضى وشمسها فى الذورة ، فكأنه عاصر أيامها الذهبية . وعلى هذا القياس يجب أن تنظر الى شعره وتنقد مدار حياته .

على أن أبا نواس — وإن انصرف الى القصيد — عاش غالبية حياته فى المجون واللهو ، وأسرف فى الخطيئة اسرافاً ، ولم يترك موبقة الا وارتكبها ، وزاول الرذائل جملة حتى عافت نفسه هاته الخطايا ورجع عن عصيان ربه فندم على ما فات وتحسر لما أتاه فى أيامه الأولى ، فنسك وزهد وبات إماماً حكيماً ينطق بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة . وكما نبغ فى شعر اللهو والمجون نجح فى شعر الزهد والتوبة ، ولذا ترى لأبى نواس طورين متباينين من حياته يجب أن تدركهما عند مطالعة ديوانه ، وأن ترقب شعره تحت ضوء هاته الحقيقة حتى لا تسرف فى خلطهما لئلا تخرج بتناقضه هو الآخر كبعض من تبعه من العباسيين .

والغريب أن موقفك من ديوان أبى نواس يشبه الى حدّ ما موقفك من ديوان بشار : فانت مرغم إرغاماً على مطالعة هزلياته فقد تدرك منها شيئاً عن المؤثرات التى أحاطت بالرجل فنهضت به وسيرت نبوغه فى مسار أقبل عليه ولم يبرحه ، وأنت مرغم كذلك على ايرادها دون حذف لأنك لو أسقطت هزليات أبى نواس وإسفافه ومجونه من شعره لخرج ديوانه مهزولا محلولا إلا فى بضع قصائد قالها فى المديح والرثاء والعصبية لليمن ، وفى قسوة لا تعدلها قسوة — لا بالرجل — وانما بأدب العصر الذى عاش فيه .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦٨

ودُعى صاحبنا (أبا نواس) لذؤابتين كانتا له تنوسان على عاتقيه ، وسُئل مرة فقال : أنا كنيت نفسى بذلك لأنى من قوم لا يشتهر فيهم الا من كان اسمه فرداً ، وكانت كنيته لسبعة [١] ولعل صاحبنا يقصد الاذواء وهم الذّوون ملوك اليمن من قضاعة وهم ذو يزن وذو رعين ، وذو قائش ، وذو جدن، وذو نواس، وذو أصبح ، وذو كلاع وهم التبابعة . وروى حمزة بن الحسن الاصبهانى جامع ديوانه أن خلف الاحمر هو الذى كناه بهـا تعصباً لليمنية ، « فقال له يوماً أنت من اليمن فتكنّ باسم ملك من ملوكهم الاذواء . فاختار ذا نواس فكناه أبا نواس بحذف صدره وغلبت عليه [٢] » .

ونشأ أبو نواس بالبصرة وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمى حتى حذقه وأضحى اقرأ أهل البصرة ، وشب أبو نواس فاسلمته أمه الى براء يعمل فى عود البخور فعمل معه حيناً ولكنه لم يلبث أن تأدب وتعلم الكلام ، وكان لزاماً عليه أن يترك حانوت البراء يوماً لبعد ما بين الصناعتين صناعة العود وصناعة الكلام ... ، إذ ذاك بدأ أبو أسامة والبة بن الحباب الأسدى فى سماء حياته فاصطحبا ، وكان أبو نواس كما قدمت لك حسن الوجه رقيق اللون أبيضه ، حلو الشمائل ناعم الجسم ألثغ الراء يجعلها غيناً ، وكان نحيفاً فى حلقه بحة لا تفارقه ،عظيم الرأس وشعره دائم الانسدال على وجهه وقفاه ... فجن به والبة ولم يتركه وقضى فى صحبته حيناً يتعلم الشعر عليه الى أن قوى عوده فسأله الخروج الى البادية ليتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع وفد بنى أسد فأقام بالبادية سنة . وكانت هذه الفترة من حياته فترة التثقيف بحق فقد اختلف فيها الى أبى زيد فكتب الغريب من الألفاظ ودرس نحو سيبويه وقرأ الحديث على كثيرين منهم عبد الواحد بن زياد ، ويحيى القطان ، وجلس الى الناشىء محمد بن حبيب الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة .

وفارق أبو نواس والبة ورجع الى البصرة فتتلمذ على خلف الأحمر . . وكان هذا بحق أكثر أساتذته تأديباً وتخريجاً له ، أجهد نفسه فيه إجهاداً تتحسسه لو عرفت أن خلفاً لم يسمح لأبى نواس بنظم الشعر إلاّ بعد أن حفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ، وروى لستين امرأة شاعرة منهن الخنساء وليلى ... ولما حفظها وقضى فى انشادها له أياماً ، أمره بأن ينساها . . . فخلا بنفسه فى أحد

(١) ابن منظور ص ٣ (٢) خزانة الأدب للبغدادى ج ١ ص٢٣٧ الشاهد ٥٣

الأديرة الى أن نسيها. وعندئذ أذن له بنظم الشعر فنظمه[1] ونبغ فيه الى درجة أن حبيب بن أوس الطائى كان يقول «أبو نواس ومسلم بن الوليد اللات والعزى وأنا أعبدها ! على أن أبا نواس رغم ذلك إنما سَفَلَ عمَّن تقدمه من الشعراء وعلا عمن عاصره ، وهذا يكفيه » .

وكان ابن الاعرابى يقول « ما يمنعنا من رواية شعر أبى نواس الا نبذله وسخفه » — وكان أبو عمر الشيبانى الكوفى يقول « أشعر الناس فى وصف الخمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نواس » .

وكان أبو عبيدة يقول :« أبو نواس للمحدثين مثل امرىء القيس للمتقدِّمين ، وشعره عشرة أنواع ، وهو مجيد فى الكل . وما زال العلماء والأشراف يروون شعره ويتفكهون به ويفضلونه على أشعار القدماء[2] » .

وقال أبو عمرو الشيبانى : « لولا أن أبا نواس أفسد شعره بهذه الأقذار — يعنى الخمور — لاحتججنا به لأنه كان محكم القول لا يخطىء » .

وكان أبو نواس لا يقول الشعر الا اذا كان فى بستان مونق وعلى حال يرتضيها ، إما من صلة وُصل بها أو وعدٍ بصلة ، وكان لا يرضى عن الشعر الذى يقوله فى غير ذلك

---

(١) كان أبو نواس قد نظم القصيد قبل هذا والذى فى (وفيَّات الأعيان) و (عيون الأخبار) أن أول شعر قاله أبو نواس كان عند ما قدم بغداد مع والية ابن الحباب وهو :

حاملُ الهوى تعبُ يستخفه الطربُ
إنْ بكى يحقُّ له ليس ما به تعبُ
تضحكين لاهيةً والمحبُّ ينتحبُ
تعجبين مِن سقمى صحتى هى العجبُ !
كلما انتفى سببٌ منك جاءنى سببُ

وإن كان ابن منظور ساق قصيدا اخر ، ولكن هذا أصحّ على التحقيق .

(٢) الخزانة للبغدادى ص ٢٣٨ ج ١ — راجع أيضاً أعلام الكلام لابن شرف القيروانى ص ٢٣ فستجد به رأياً عن صاحبنا لا بأس من الاطلاع عليه .

والواقع أن أبا نواس لم ينظم شعر الخمر الا وقت نشاطه ، وكان يعمل القصيدة ويتركها أياماً ثم يعرضها ثانيـة على نفسه فيسقط منها أغلبهـا ويترك صافيها ، ولذا كان شعره على البديهة ليس بالجيـد ولا بالدون ، ولم يكن فى نظم الشعر بالبطىء ، وما كان كذلك بالسريع بل كان وسطاً فى كل شىء . وكان يقول عن نفسه: أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثلها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس وهما أجود شعرى ، إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطرد . رأيت اذاً أبا نواس يشهد لشعره فى الخمر بالسبق على قصيده كله ، ولك أن تعرف أيضاً أنه انفرد دون العباسيين بالحديث عنها ووصفها . وسترى أنه أسرف فى ذلك اسرافاً دفعه الى الاجادة فى هذا الضرب من القصيد ، ومن جيده :

فقلتُ لشيخ منهم متكلم ... له دينُ قسيس وفى نطقه كفرُ
أعندك بِكرٌ مُرَّةُ الطعم قرقفٌ ... صنيعة دهقان تراخى له العمرُ ؟
فقال : عروس كان كسرى ربيبها ... معتقة من دونها الباب والسترُ !

وله فى وصفها أيضاً وهذى كسابقتها من شعره عند ما تعاجم :

تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارسُ
قرارتها كسرى وفى جنباتهـا ... مها تدَّريهـا بالقِسىِّ الفوارسُ
فللخمرِ ما زرّت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانسُ

وكان الرجل قد تحسس لوم الناس ، فأكثر من ذكر اللوام وتعنيفهـم والدفاع عن شعره ، قال :

لائمى فى المدام غير نصوحِ ... لا تلمنى على شقيقة روحى !
لا تلمنى على التى فتنتنى ... وأرتنى القبيحَ غيرَ قبيحِ !
قهوة تترك الصحيح سقيماً ... وتعير السقيمَ ثوبَ الصحيحِ
إنّ بذلى لهـا لبذلُ جوادٍ ... واقتنائى لهـا اقتناء شحيحِ

ومن جيِّد قوله على ما رواه يحيى بن زكريا :

لا تخشعنّ لطارق الحـدثانِ ... وادفع همومك بالشرابِ الفانى
أوَمَا ترى أيدى السحائب رقَّشت ... حلل الثرى ببدائعِ الريحانِ

وفى ختامها يقول :

فاذا الهمومُ تعاورتك فسلِّها بالراح والريحان والندمانِ (١)

ثم نهى أبونواس عن ذكر الخمر وشربها . نهاه الرشيد فلم يقلع ، ونهاه الامين وتوعّده ، وكان الامين قد ضاق بمجونه ذرعاً لأن الناس يحسبونه فى حاشيته ويعدّونه من المقربين لديه ، ولكن كانت (الخمريات) أول ما تفنن فيه صاحبنا وكان قد أكثر من ذكرها والحنين اليها ، وجاء هذا الوعيد وخشى صاحبنا أن يناله الجزاء ولكنه لم يستطع الانصراف عن ذكرها جملة ، فجاء بها على هامش ترديده لهذا الوعيد . وسترى فى هذا جديداً فى شعر الرجل ، ونحسّ شيئاً من حنينه عند ما يقول إن أكبر ما يتوق اليه أن يراها وأن يشم نسيمها إن هى دارت ، وستراه يشبه نفسه بالرجل الذى يأبى الشىء ومع ذلك يستحسنه لسواه ويجلس للتحكيم فى ذلك ، قال :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلاّ شميما
نالنى بالمدام فيها إمامٌ لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها الى سوايَ فانى لستُ الا على الحديث نديما
كبر حظى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنى وما أزين منها قعدىٌّ يزيّنُ التحكيما
كلّ عن حمله السلاح الى الحر ب فأوصى المطيق أن لا يقيما

وكان المجون ـ كما قدمت لك ـ يشغل الجانب الأكبر من حياته ، واضطر صاحبنا لمجونه أن ينقل صفات الأنثى فى الغزل الى المذكر فخرج بذلك عما ألفه العرب ، واستنّ سنة جديدة للشعراء الذين تبعوه ، إذ أرغموا ارغاماً على أن يمزجوا شعرهم بالكثير من إسفافه وضروب مجونه ، وأنا مرغم كما حدثتك على أن أسوق لك أمثلة من قوله ، ولا أستطيع أن أسقط هذا الضرب من شعره ، ولكن لك علىّ أن أتعفف فى اختياره ، واسمعه يقول :

---

(١) تجد فى كتاب ابن منظور ص ٢٠٣ وما بعدها نماذج كثيرة من شعره وصف الأشربة وآداب المنادمة إن أردت مزيداً .

مَن كان تُعجبه الأنثى ويعجبها ... مِن الرجال فانى شفَّنى الذكَرُ
فوق الخماسى لما طرّ شاربه ... رخص البنان خلامن جلده الشعَرُ

ومن جيِّده أيضاً :

وعاذلةٍ تلوم على اصطفائى ... غلاماً واضحاً مثل المهاةِ
وقالت : قد حُرمتَ ولم توفّق ... لطيبِ هوى وصال الغانياتِ
فقلت لها : جهلت فليس مثلى ... يخادع نفسَه بالترّهاتِ
دعينى لا تلومينى فانى ... على ما تكرهين الى الممات
بذا أوصى كتابُ الله فينا ... بتفضيل البنين على البناتِ !

ولكن هل نسى أبونواس الأنثى ؟ لا ! وما أظننا نستطيع أن نغفل (لجنان) ولا غرامه (بنرجس) وقد قال فيها :

ما قمراً فى السماء مسكنه ... ونرجس الارض فى البساتين
يا يا سمناً بالمسك مختلطاً ... يا جلّناراً فى طِيب نسرين
خُلقت من مسكة مزعفرةٍ ... أشبه شىء بالخرّد العين

وقد تدفع هذا بالعاطفة،ولكن خذ مثلا أيضاً من صناعته فى حديثه عن الانثى

قالوا : عشقتَ ! صغيرة فأجبتهم ... أشهى المطىّ الىَّ ما لم يركبِ
كم بين حبّة لؤلؤٍ منقوبةٍ ... نُظمتْ وحبة لؤلؤ لم تنقبِ

وشعر أبى نواس فى حب النساء والتوله بالغلمان كثير، تجده فى كتاب ابن منظور المصرى صاحب «لسان العرب» ،وقد ساقه صاحبنا دون أن يبوبه حتى لا يقتطع منه أو يفصل الكتاب دونه .

واتصل أبو نواس بالرشيد للسمر والحديث ثم انقلب منه الى منادمة الأمين فنادمه وبقى فى صحبته حتى ولى العرش ، فأباح دمه مرة وحبسه أخرى فاستجار بالمأمون وهو فى سجنه ولكن المأمون لم يدركه ، ومن هنا تدرك أن أبا نواس عرف أيام الرشيد ومات قبل أن يلى الأمر المأمون ، وفى هذه الفترة من أيام العباسيين نبه شأنه فكان شعره بما فيه من مجون وعبث مرآتها : تشبيب بالجوارى

والغلمان ، ولغز بالشعر فى المحصنات ، واستهتار فى الشهوات مع العمل للوصول اليها من أى سبيل .

وفى هذه الفترة أيضاً كانت ثورة أبى نواس على عرب البصرة واليمنيين وهجو هاشم بن حديج . قال يهجو عرب البصرة :

ألا كل بصرىٍّ يرى انما العُلى ... مُكمهةٌ سُحْقٌ لَهن جَرِينُ
فان تغرسوا نخلاً فان غِراسَنا ... ضِرابٌ وطعنٌ فى النُّحورِ سخينُ
فإن أك بصرياً فان مهاجرى ... دِمَشْقُ ولكنَّ الحديثَ فنونُ
محاورُ قومٍ ليس بينى وبينهم ... أواصرُ الاَّ دعوةٌ وظنونُ

وقال يهجو اليمنيين وهاشم بن حديج :

ما منك سلمى ولا أطلالها الدُّرُسُ ... ولا نواطقُ من طيرٍ ولا خُرُسُ
يا هاشم بن حديج لو عددت أبا ... مثل القلمس[1] لم يعلق بك الدنسُ
إذ صبح الملك النعمان وافده ... ومن قضاعة أسرى عنده حبسُ
فابناءهم بأخاء الدهر ما عمروا ... فلم ينل مثلها من مثلهم أنسُ
أو رحت مثل حُوَىٍّ فى مكارمه ... هيهات منك حُوَىٌّ حين يلتمسُ

وكان أبو نواس قد قدم النزارية هنا ، ولكنه سرعان ما انقلب على النزارية عند ما هجاه ابن قنبر المازنى ، وندم على هجاء اليمن واعتذر الى هاشم بن حديج من هجائه ومدح اليمن فقال :

أهاشم خذ منى رضاكَ وإن أبى ... رضاكَ على نفسى ففيه مَلوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدى ... وعرضى ، وما مزقت غير أديمى

---

(١) القلمس أحد بنى كنانة نسّاء مشهور ، وكان يقف عند جمرة العقبة ويقول : اللهم انى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أجاب ؟ ! اللهم انى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر الآخر ، وكذلك فى الرجبين (يعنى رجب وشعبان) انفروا على اسم الله تعالى . قال تعالى : « انما النسىء زيادة فى الكفر » . راجع القاموس مادة قلمس .

الى أن قال :

وإن امرأً أغضَى على مثل زلَّتى وإن جرحت فيه لجدٌّ حليمِ
تطاول فوق الناس حتى كأنما يرون به نجماً أمام نجومِ
إذا امتازت الاحساب يوماً بأهلها أناخ الى عاديّةٍ وصميمِ
الى كلِّ معصوب به التاج مِقْوَلٍ إليه أيادى عامرٍ وتميمِ

وأبدع ما كتب أبو نواس ـ اذا جاز لنا أن نترك الى حين شعره فى وصف الخمر ـ شعر النسيب ، واستشهد ابن رشيق صاحب (العمدة) بكثير من شعر أبى نواس عند الحديث عن هذا الضرب من القصيد فى كتابه . وقد روى أن جماعة من الكتاب وردوا على العتابى وهو بحلب وفى يده رقعة قد أطال فيها النظر والتأمل فقال: أرأيتم الرقعة التى كانت فى يدى ؟ قالوا نعم ! قال : لقد سلك صاحبها وادياً ما سلكه غيره فلله دره وكان فى الرقعة قول أبى نواس :

رسم الكرى بين الجفون محيلُ عفَّى عليه بُكاً عليك طويلُ
يا ناظراً ما أقلعت لحظاتُه حتى تشحط بينهنَّ قتيلُ (١)

وكان أكثر ما كتبه أبو نواس من الغزل تشبيبه بجنان جارية آل عبدالوهاب بن عبدالمجيد الثقفى وهو لا يعرفها عند ما مرت به وهو جالس فى المربد ينشد الشعر . ثم عرفها وعاشر الثقفيين من أجلها وراسلها حيناً طويلا وهى تردّ رسله بالسبّ . وامتنعت عنه حيناً طويلا ثم رقّ قلبها عليه يوم أن شكته لسيدها فسبه وشكاه الى بعض اخوانه خشية أن يهجوه ، ولكن صاحبنا كان قد توله بحبِّ جاريته فقال :

من سبنى من ثقيف فإننى لن أسبهْ
أبحتُ عرضى ثقيفاً ولطم خدى وضربهْ
وكيف ينكر هذا وفيهمو لى أحِبَّهْ

وله فيها أيام امتناعها عن مراسلته والانصات لحبه :

يا ذا الذى عن جنان ظلَّ يخبرنى بالله قل واعتبر يا طيبَ الخبرِ
قال : اشتكت ثم قالت ما بليت به أراه من حيثما أقبلت فى أثرى

(١) العمدة ج ٢ ص ٩٦ .

ويعمل الطرف نحوى إن مررت به حتى ليخجلنى من حدّة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمنى فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه حتى لقد صار من همى ومن وطرى

وقيل له يوماً إن جناناً قد عزمت على الحج . قال : أما والله ما يفوتنى الحج والمسير عنها ، ثم سبقها إلى الخروج بعد أن علم أنها خارجه . ولما عاد قال :

ألم ترنى وقد أفنيت عمرى بمطلبها ومطلبها عسيرُ
فلما لم أجد سبباً لديها يقربنى وأعيتنى الأمورُ
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعنى وإياها المسيرُ !

* * *

وكان من الضرورى أيضاً أن يسلك أبو نواس هذا الضرب من القصيد الذى يفتقر اليه شاعر يتكسب بالشعر . بل كان بحكم انصرافه الى المنادمة والسمر مرغماً على أن يكثر القصيد فى مديح الأمراء والولاة وأن يتفنن بالتبعية لهذه الكثرة .

كان ابن الاعرابى يقول إن مديح أبى نواس جيد يطرب ، وأمدح بيت لمولد قوله :

تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الايامُ ما اسمى لما درت وأين مكانى ، ما عرفن مكانى !

وقد ذهب أبو نواس فى هذا مذهباً لطيفاً يخرج له فيه بعض العذر والتأويل ، والاّ لو نوقش على أساس ما ورد فى بعض النسخ (فلو تسأل الأيام عنى ما درت) لما كان فى وصف الخمول أشد مما وصف نفسه به !

ومن جيد شعره فى المديح :

تقول غداة البين احدى نسائهم لِمَ الكبد الحرى فسر ولك الصبرُ
وقد خضبتها عبرة فلدمعها على خدها خدٌّ وفى نحرها نحرُ
وقالت : الى العباس ! قلت : فمن اذاً وما لى عن العباس معدى ولا حصرُ
فهل يكفلن الا براحته الندى وهل يزهون الا بأوصافه الشكرُ ؟

وقال فى مدح الأمين من قصيدته الميمية :

واذا المطىُّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرامُ

وهذا لعمرك غاية المديح .

وقد سلك أبو نواس سبيل المتقدمين فى بدء قصائد المديح بالغزل ، وقد نجح مراراً فى التخلص من الغزل الى المديح رغم صعوبة هـذا ، ونرى هنا مثـلا منه فى قصيدته التى مدح بها الخصيب ، فقال بعد أن أكثر من الغزل :

تقول التى من بينها خفَّ مركبي عزيزٌ علينـا أن نراك تسيرُ

أما دون مصر للغنى متطلب بلى ، ان أسباب الغنى لكثيرُ

ذرينى أكثر حاسديك برحلة الى بلد فيها الخصيبُ أميرُ

رأيت الى هنا أمثلة من وصفه للخمر وتغزله بالصبيان والجوارى ، ورأيت قطعاً من مديحه ، وقد تريد أن تسمع شيئاً من هجائه . أجل قد هجا أبونواس — هجا جنان وهجته ، وهجا اليمن وهجا النزاريين وهجا هاشم بن حـديج . ولـكن له غير هذا كثير أغلبه مملول . ولـكن خذ مثلاً هنا من تهكمه بالرقاشى ، قال :

شرابك فى السراب اذا عطشنا وخبزك عنـد منقطع التراب

وما روّضتنا لتذبَّ عنـا ولـكن خفت مرزبة الذباب

وكان هارون الرشيد يضحك كلما سمع هذا ويقول ماهجاً اعرابى ولا مولد بأحسن من هذا !

والحقيقة أن أبا نواس نجح على أساس استحداثه للمعانى ، وقد ذكر المبرد بضعاً من قصائده لم يسبقه الى توليد معانيها شاعر ، منها :

أيهـا الرائحان باللوم لوما لا أذوق المـدام إلا شميما

ومنها :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتهـا بنجوم

ومنها :

لست أدرى أطال ليلى أم لا ؟! كيف يدرى بذاك مَن يَتقلى ؟!

لو تفرعت لاستطالة ليلى وترعّى النجوم كنت مخلا

وكان أبو نواس كذلك قد أحسن فى ابتداء كثير من قصائده . ويروى ابن رشيق فى العمدة مجموعة طيبة من شعره كأمثال على حُسن الابتداء منها :

رسمُ الكرى بين الجفون محيلُ عفَّى عليه بُكاً عليك طويلُ

وقوله :

دع عنك لومى فان اللوم إغراءُ وداوني بالتى كانت هى الداءُ

ولكن أبا نواس كان يفقد تقديره أحياناً فتخرج قصيدته قوية قد أفرغ جهده فى تنميقها ونسى أو تغافل عن بدايتها فتجيء مليئة بالتشاؤم والتطير . ومما يروى أن بعض بنى برمك بنى داراً جديدة واستفرغ فيها مجهوده ثم انتقل اليها وجاءه الشعراء يهنئونه وكان بينهم أبو نواس فقال قصيدته التى مطلعها :

أرْبَعَ البلا ! إن الخشوع لبادِ عليك ، وانى لم أخنك ودادى

وختمها أو كاد بقوله :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتمُ بنى برمكٍ من راسخين وغادى

أراد أن يمدح فهجا ، ودخل ليسر فشجى ، وليس فى هذا حسن ابتداء ولا جمال ختام بل تشاؤم وطيرة ، وخاصة لأنه ما كانت الا فترة حتى أوقع الرشيد بالبرامكة !

ومن سوء ابتدائه أيضاً مطلع قصيدته التى مدح بها الأمين فقال :

يا دارُ ما فعلت بك الأيامُ؟ لم تبق فيك بشاشة تُستامُ !

وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يتطير منه لاسيما فى مواجهة الخلفاء والملوك ولهذا يختار فى ذكر الأماكن والمنازل ما رقَّ لفظه وحسن النطق به .

رأيت الى هنا كثيراً من نواحى حياة شاعرنا : سمعته يصف الخمر ويحنّ اليها ويرددها وهو يذكر وعيد الأمين إذ نهاه عن شربها ؛ وقرأت معى كثيراً من شعره فى المديح والغزل والهجاء ، ورفعت معه علم الثورة ضد اليمنيين ثم نكصت معه على عقبيك وهو يمدح هاشم بن حديج ويعتذر عن هجائه لليمنيين . ولكن بقيت ناحية من حياة شاعرنا قد يكون لها أثر كبير فى شعره ، وبقيت كذلك ناحية من قصيدة لها قيمتها عند بحث هذا القصيد والحديث عنه .. اما ناحية حياته فهى مجونه وأقاصيص هذا المجون كثيرة ، ولكن الناس أسرفوا فيها إسرافاً وأضافوا

اليها من تآليفهم الكثير المبتذل . أجل كان صاحبنا سكيرا يشرب الخمر ويتغزل فى الصبيان ويتكسب بالشعر ، ولكن هل كان هو كما صوروه فى تلك الأوراق الصفراء والخضراء التى يقرأها العامة اليوم ويتفكهون بها فى مجالس السرور ؟ ! لا ! وانما كان هذا من نتائج اسراف الرجل فى الاستهتار ، ثم كانت الفترة التى سبقت عصر النهضة الأخيرة فى اللغة وضعف الانتاج الأدبى ورأى البعض اقبال الناس على سماع المجون وروايته وترديده فأضافوا الى شعر صاحبنا الكثير من الهزل وأسرفوا فى صوغ الأقاصيص الماجنة الساخرة ! وهذه ناحية مفروغ منها ولا محل لها فى هذه الصفحات .

أما الناحية الأخرى من شعره فهى شعر التوبة عند ما رمى بالزندقة وشعر الزهد عند ما حسنت توبته وصدقت : فقد رمى صاحبنا بالزندقة أيام الرشيد ثم ولى الأمر الأمين فاتهمه الناس بها ، وحبسه الأمين لشربه الخمر علانية ثم أطلقه من سجنه بعد شهور ثلاثة ، ولكن الناس عادوا للحملة عليه واتهامه بالكفر فقبض عليه وجىء به الى الأمين فأنشد صاحبنا على البديهة :

أصلى صلاة الخمس فى حين وقتها وأشهد بالتوحيد لله خاضعاً

فأطلق الأمين سراحه ، ثم رمى به مرة أخرى وكادت تذهب به هذه المرة فقال لمن أمسكوا به بين السيف والنطع دعونى أصلى ركعتين ؛ فأفرجوا عنه فتهيأ للصلاة ثم رفع رأسه الى السماء وصلى ركعتين وقال :

سبحان من خلق الخلق ضعيف مهين
فساقه من قرار الى قرار مكين
فى الحجب شيئاً شيئاً تحار دون العيون
حتى بدت حركات مخلوقة من سكون

فقال الأمين : ما هذا زنديق ! اعطوه ألف درهم واخلعوا عليه ! فأعطوه وخلعوا عليه ! والواقع أن أبا نواس قد أفلح أكثر من مرة فى الفكاك من الموت ، على انه لم يكن زنديقا ولا متشككاً ، وانما هو رجل أفرط فى اللهو واستطابه فى عصر أطلقت فيه الشهوات للناس إن سراً وإن علانية ، فتابع القوم فى غيهم ثم بزهم ، فكان مجمل رأيه فى الحياة ما جاء فى قوله :

تكثر ما استطعتَ من الخطايا فانك بالغٌ ربّاً غفورَا
ستبصر إن وردت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تعضّ ندامةً كفيك مما تركت ـ مخافة النار ـ السرورَا

وتجد فى ذلك شيئاً لم تعد نفسك لسماعه . فالرجل حقاً قد أسرف فى المجون ولكنه لم يتشكك ولم يتابع معاصريه من الفلاسفة بل بقى مؤمناً يلهو إلى أن أحسّ بالندم فتاب وتجد اعترافه بالذنوب والآثام واضحاً فى قوله :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللحظ حين أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤٌ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك أثامُ !

وترى توبته ستجد رجلاً يطمع فى الغفران ويرجوه :

أقلنى قد ندمت على الذنوب وبالاقرار عدت من الجحود
أنا استهديت عفوك من قريب كما استعفيت سخطك من بعيد

وأرغم أبو نواس عند ما انصرف عن اللهو وتاب عن المجون على أن ينظم الشعر فى الزهد ، وقد أعجب المأمون بشعره فى وصف الدنيا حتى روى ابن منظور أن المأمون كان يقول لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس فى قوله :

ألا كلّ حى هالك وابنُ هالك وذو نسبٍ فى الهالكين عريقِ
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وشعر الزهد حجر الزاوية فى قصيد أبى نواس ، وكان أبو العتاهية يقول : سبقنى أبو نواس الى ثلاثة أبيات وددت أنى سبقته اليها بكل ما قلته فانه أشعر الناس فيها ! ومنها قوله :

يا كبيرَ الذنب عفو الله مِن ذنبك أكبرْ

وقوله :

مَن لم يكن لله متهماً لم يمس محتاجاً إلى أحدِ

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفتْ له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت ، وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

واجتمع أبو العتاهية وأبو نواس عند اسحاق بن ابراهيم بن ميمون فقال له : كيف قلت فى اعتذارك الى الرشيد ومدحك الفضل بن الربيع فأنشده الشعر الذى يقول فيه [١] :

ما من يدٍ فى الناس واجدة الا أبو العباس مولاها
قد كنتُ خِفتك ثم أمننى من أن أخافك خوفك الله !

رأيت الى هنا نماذج من شعر صاحبنا ، حدثتك بالجيد من شعره وبقى أن تعرف اراء النقاد فيه . ففى بعض نسيبه خشونة . كما فى قصيدته التى مدح بها الخصيب أمير مصر :

أجارةَ بيتينا أبوك غيورُ وميسور ما يُرجى لديك عسيرُ
فان كنتِ لا خلاً ولا أنت زوجة فلا برحت منا عليك ستورُ
وجاورت قوماً لا تزاور بينهم ولا قرب إلا أن يكون نشورُ

وقد قال أبو عبيدالله محمد بن شرف القيروانى [٢] لم أسمع بأوحش من هذا التشبيب وذلك قوله إن لم تكونى لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ولا كان جارك ما عشنا نحن الا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون الى يوم النشور .

والغريب أن أبانواس مع كثرة المعانى التى استحدثها لم يترك معنى سبقه اليه معاصرٌ الا أخذه عنه . قال أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخرٌ عنه ولا متقدمُ

فقال هو :

فما جازه جود ولا حلَّ دونه ولكن يسير الجود حيث يسيرُ

والغريب أن أبا نواس رغم نضال أصحابه عنه من أجل هذا البيت كان يقول : (ما زلت أحسد أبا الشيص على هذا البيت حتى أخذته منه [٣]) .

---

(١) ابن منظور ص ٦٧ (٢) أعلام الكلام ص ٤١ (٣) أعلام الكلام ص ٤٢

ويزعم البعض أنه أخذ قوله « وداوني بالتي كانت هي الداء » من قول الأعشى « وأخرى تداويت منها بها » وقوله « إن الشباب مطية الجهل » من قول النابغة « فان مطية الجهل الشباب » !

وفي شعر أبي نواس أيضاً بضعُ سقطات لغوية . خذ مثلاً منها وصفه للخمر :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذهب

والخطأ واضح لا غموض فيه لأن قول صغرى وكبرى غير جائز فان فعلى أفعل لا يجوز فيها حذف الألف واللام منها ، وانما يجوز حذفهما من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبلى الا أن تكون فعلى أفعل مضافة وهي هنا قد عريت عن الاضافة .

هذا هو شاعرنا على علاته . نشأ في ضحى أيام العباسيين وصحب أيامهم وشمسهم في الذروة ، عاشر الرشيد حتى قربه اليه وأدناه منه ، عرفه للسمر والحديث وأدناه منه للشعر والأدب ، ثم صحب الأمين وعاش مقرباً منه كما كان في أيام أبيه . وجاء وسوق الأدب قائمة فزاد من نهضتها وأعلى قبابها . وعاش في بغداد والناس فيها يجمعهم اللهو وتربط بينهم الصداقة أواصر المجون ، فاسترسل معهم مستسلماً إلى شهواته كما استسلموا . ثم عافت نفسه وقد حانت منيته هانه الشهوات واللذّات فرجع إلى ربه . تحسر وبكى ، وانطلق لسانه بالندم والتوبة وطلب الغفران ، نسك وتعبد ونطق بالحكمة ، ولكن كان الأجل المحتوم قد شارف على الوصول اليه فقضى نحبه على ما قيل سنة ست وتسعين ومائة وكان عمره وقتذاك تسعاً وخمسين سنة وأسدلت الستار على حياته الحافلة بمتباين النزعات ونسيه من أعجبوا به ، وإن كان معاصروه قد اغتصبوا أغلب تركته . . وترك ديوانه نهباً حتى وصلت يد الضياع الى الكثير منه . ومات الرجل وكأنه لم يكن ، وكان أحقّ بأن يكتب أصحابه على قبره ما رثى هو به محمد الأمين[1] .

وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذرهُ !

---

(١) هذا على زعم أنه مات بعد وفاة الأمين بسنة وهو رأي حمزة الأصبهاني جامع ديوانه ، ولكن في ابن خلكان أنه مات سنة ست وتسعين ومائة وهذا ما أخذنا به ، ولذا تكون قصيدته هذي في رثاء شخص آخر غير محمد الأمين — راجع الوسيط ص ٢٥٧ ، ابن منظور ص ٧٠ ، ابن خلكان ص ١٦٨

مراجع البحث

وفيّات الأعيان	لابن خلكان
أخبار أبي نواس	لابن منظور المصرى
خزانة الأدب	للبغدادي
العمدة	للحسن بن رشيق
عيون التاريخ	لصلاح الدين بن شاكر الكتبي
الأغانى	لأبى فرج الأصبهانى
قراضة الذهب	للحسن بن رشيق
أعلام الكلام	لابن شَرَف القيروانى
الوسيط	للإسكندرى وعنانى
أبو نواس أخباره وشعره	لعبّاس مصطفى عمّار

محمد عبد الفتاح ابراهيم